الأُسسُ الفلسفيّةُ للنظريةِ التوليديةِ التحويليةِ في الرسائل والأطاريح العراقيّة

–دراسة نقديّة–

The Philosophical Foundations of The Transformational Generative Theory in the Iraqi Theses and Dissertations

– A Critical Study-

خالد مهيدي صالح
مدرس مساعد
جامعــة الموصــل– كليــة التربيــة الأساسية– قسم اللغة العربية
د. صالح علي الشيخ
أستاذ مساعد
جامعة الموصل
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

Khalid Mhaidi Salih
Assistant teacher
University of Mosul - College of Basic Education - Department of Arabic language
Dr. Salih Ali Al-Sheich
Assistant Professor
University of Mosul - College Education for Humanities- Department of Arabic language

Khalid.hamad@uomosul.edu.iq
salih_alsheikh@uomosul.edu.iq

الكلمات المفتاحية: تشومسكي، فسلفة، النظرية التوليدية، الرسائل العراقية

Keywords: Chomsky, Philosophy, Generative Theory, Iraqi theses

الملخَّص

تهدف هذه الدراسة إلى تتبعِ المقولات والأفكار الفلسفية للنظرية التوليدية التحويلية، التي تناولها الباحثون العراقيون في رسائلهم وأطاريحهم الجامعية، وإرجاعِها إلى أصولها وسياقتها الفلسفية، ونقْدِ تلقي هؤلاء الباحثين لها، في محاولة لمعالجة المغالطات، وتصحيح المسار نحو فهمٍ واعٍ لحقيقة النظرية. واقتضت طبيعة دراستنا استعمال أكثر من منهج، فاستُعمِل المنهج التاريخي للعودة بالأسس الفلسفية إلى جذورها، واستُعمِل المنهج الوصفي لمعاينة الأسس الفلسفية عند تشومسكي وعند الباحثين العراقيين، ثم المقارنة بين الاثنين، وأخيرًا، الخروج برؤية نقدية لطبيعة تلقي الباحثين العراقيين لهذا الأسس الفلسفية. وخلُصت الدراسة إلى أن ثمة قصورًا واضحًا في تلقي الباحثين العراقيين للأسس الفلسفية للنظرية التوليدية التحويلية في رسائلهم الجامعية، فشابت تلقيهم بعض الإشكالات والمغالطات، كفصل الأسس الفلسفية عن سياقاتها، دون دراية بطبيعة السياق الفلسفي الأصل، أو نسبة هذه الأسس إلى غير أصحابها. وقد أحدث فجوة معرفية في تلقيهم للنظرية عمومًا.

Abstract

This paper seeks to trace the philosophical ideas of transformational generative theory discussed in Iraqi university research and recontextualize them into their philosophical origins. It also aims to critique the perception of those researchers in an attempt to address the fallacies and rectify the path towards a conscious understanding of the theory. This paper required that more than one approach be used. The historical approach is used to return the philosophical foundations to their origins. The descriptive approach is used to examine them in both Chomsky's and Iraqi researchers' works. Then, a comparison is made between the two. Finally, we provide a critical view of the nature of Iraqi researchers' perceptions of the foundations. The study concluded that there is a clear dearth of how Iraqi researchers perceive the philosophical foundations of the transformational generative theory. This led to issues and fallacies like separating the philosophical foundations from their contexts unaware of the original context or attributing them incorrectly, resulting in a knowledge gap in the overall perception of the theory.

المقدمة

يحيل التساؤل عن الأسس التي ارتكزت عليها النظرية التوليدية التحويلية _عمومًا_ إلى مجالات معرفية كثيرة، ذلك أنّ اللسانيات بشكل عام والتوليدية التحويلية على وجه الخصوص، قد امتاحت من مشارب مختلفة عبر رحلة تكوينها. ومن المؤكَّد أنَّ نظرية لغوية يبلغ بها الأمل والطموح العِلميّان أنْ تضع هدفًا من أهدافها السعيَ لفهم الطبيعة البشرية، ستحتاج إلى أنْ تستند على مرجعيات مستجلَبة من مجالات معرفية أخرى، تأتي الفلسفة في مقدمتها. وهذا ما فعله تشومسكي رائد هذه النظرية، الذي أخذ من الفلسفة مقولات وأفكارًا من حقب مختلفة، ووضعها في إطار يتلاءم والنسق التوليدي التحويلي، لتكون جزءًا من بنية النظرية وأساسًا مهمًّا من أسسها.

وإنّ ما هو علمي يتجاوز حدود الزمان والمكان وحتى اللغة. والتوليدية التحويلية _بوصفها نظرية علمية_ قد انتشرت على نطاق واسع، وتلقّاها المعنيون باللسانيات بحثًا ودراسة وتطبيقًا. واللسانيون العرب _كغيرهم_ ليسوا بمنأى عن هذه النظرية، إذ تنالوها بطرائق مختلفة ومن جوانب عدة، من ذلك: أسسها الفلسفية التي تمثل السبيل الأهم نحو فهم معمَّق لجوهر النظرية، وهذا ما سنُعنى به في بحثنا هذا، من خلال الرسائل والأطاريح الجامعية العراقية، التي بلغت (١٠) دراسات. وننقد في بحثنا هذا ما تناوله أصحاب الرسائل والأطاريح، الذين لم يذكروا كل الأسس الفلسفية، وأحيانًا يكتفون بالإشارة والتلميح. وتنتهي حدود عنايتنا بهذه الأسس عند القدْر الذي يحقق استجلاء طبيعة ارتباطها بالنظرية، وكيف تناولها الباحثون العراقيون المعنيون بالنظرية في دراساتهم؟ وما مدى فهمهم لها؟ وإن عملية استجلاء كل هذا، قد تسوِّغ لنا العودة إلى السياقات التي اجتُلِبتْ منها أسس النظرية حين تقتضي الضرورة ذلك.

الأسس الفلسفية للتوليدية التحويلية(The Generative Transformative)

لقد صاغ تشومسكي كثيرًا من مبادئ النظرية التوليدية التحويلية بتفعيله أسئلة فلسفية قديمة، واستثماره لحظات منيرة في تاريخ الفلسفة، لاسيما الفلسفة العقلانية (Rationalism)، ولهذا كثيرًا ما نجد في كتاباته تداخلًا بين النسق العلمي في دراسة اللغة والنسق الفلسفي. فهو ليس صارمًا في مسألة الفصل بينهما، ونجده يصرِّح بذلك قائلًا: "لا أُقيم فارقًا صارمًا بين العلم والفلسفة. إذ لم يُبتدَع الفارق بينهما إلّا في الماضي القريب، وذلك بغض النظر عمّا إذا كان لذلك ما يسوِّغه أو لا".(تشومسكي،١٩٩٠، ص١٣). ويرى أنّ إصرار التخصصات على تحرير نفسها من عدوى التخصصات الأخرى ظاهرةٌ حديثة غريبة (تشومسكي، ٢٠٢٢). فتشومسكي يعوِّل كثيرًا على الفلسفة في دراسته العلمية للغة، موظِّفًا كشوفاتها المبكرة في ترسيم حدود نظريته ووضعِ الأهداف التي تسعى للوصول إليها، فضلًا عمّا ينبغي لها أنْ تُعنى به أو تهمله. ولأنّ الفلسفة العقلانية هي المنبع الأساس الذي استقى

منه تشومسكي فكره، مشَكِّلًا به إطاره العام؛ فإنّ الأسس الفلسفية التي ارتكز عليها في تشييد نظريته، لن تكون إلّا مظاهر للعقلانية وانعكاسًا لها، ولهذا آثرنا أنْ تكون العقلانية مُفتتَحًا لهذا البحث، فهي قسم قائم بنفسه وعنه تتفرع الأسس الأخرى، فلا يجوز أنْ يكون ما هو واقع تحتها قسيمًا لها. ولأجل هذا، تناولنا العقلانية بوصفها أساسًا فلسفيًّا للتوليدية التحويلية، تتفرع عنها أسس أخرى نابعة منها.

العقلانية بوصفها أساسًا فلسفيًّا رئيسًا:

لقد ظلّ التفلسف يتجاذبه منهجان مهيمنان عبر تاريخه الطويل، هما المنهج العقلاني والمنهج التجريبي (empiricist approach)، ولكلٍّ منهج منهما أطروحاته الخاصة، ولاسيّما ما يتعلق بطبيعة المعرفة البشرية ومصدرها. فطبيعةُ النظر إلى المعرفة ومصدرها تعدُّ بمثابة الحدّ الفاصل بين المنهجين، ويمثِّل كلٌّ واحد منهما مركزَ استقطاب للفلاسفة المتبنِينَ لأطروحاته الرئيسة. فالتجريبيون يذهبون إلى "أنّ المعرفة البشرية كلّها تُستمَد في النهاية من التجربة الحسيّة. والعقلانيون، خلافًا لذلك، يؤكِّدون الدور الذي ينهض به العقل متباينًا عن الحواس في اكتساب المعرفة" (كونتغام،١٩٩٧، ص١٧)، ويرون أنّ البشر يتوفرون على أفكار فطرية (Innate) مستقلة عن التجربة، تتمثل في مفاهيم ومعرفة سواء في الواقع، أو عن طريق استعداد مسبق موجود بالفطرة، خلافًا للتجريبيينَ الذين يرون أنّ كلّ ما يتوفر عليه البشر فطريًّا، يتمثل في الحواس، فضلًا عن آلية التعلم العامة. وقد سادت التجريبية بحلول النصف الثاني من القرن العشرين، في وقت نُظِر فيه للعقلانية على أنّها منهج قديم، عفا عليه الزمن، ولكنّ ظهور تشومسكي بفكره العقلاني، قد أعاد تأهيل العقلانية (سميث، وآلوت،٢٠٢٠)، ودفع بها إلى الواجهة من جديد، مستندًا على حجج قوية في بعث الأفكار الفطرية ممثلة بفرضية الاستعداد المسبق لاكتساب اللغة. و"تُمثِّل وجهات نظر تشومسكي نسخة حديثة من المذهب العقلاني" (سميث، وآلوت،٢٠٢٠، ص٣٦٢)، ولم يكتفِ بحدود العقلانية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ هاجم كثيرًا من أطروحات التجريبية، لاسيّما السلوكية (Behavioralism)، وتمثَّل ذلك بنقده لكتاب سكنر (السلوك اللفظي Verbal Behavior) نقدًا عنيفًا. وما تقدم جعل من تشومسكي اللغوي واحدًا من أبرز الفلاسفة العقلانيين المعاصرين، إنْ لم يكن أبرزهم.

ذكرنا أن العقلانية منهج فلسفي، يُعنى بطبيعة المعرفة البشرية ومصدرها، ذاهبًا إلى القول بفطريتها... وكثيرًا ما أُسيء فهمه في الرسائل العراقية، فلم يُنظَر إليه على أنّه منهج تفكير قائم بنفسه، إنّما نُظِر إليه من خلال مواقفه ضد المنهج التجريبيّ! التي وإنْ كانت إجراءً مهمًّا، لكشف أبعاد المنهج العقلاني أكثر، لكنَّها ليست كأهمية النظر إليه من داخله ومعرفة طبيعته وطريقة اشتغاله. فتشومسكي حين أسّس لنظريته، لم يكن تأسيسه نابعًا من مواقفه ضد التجريبية ممثلة بالبنيوية، والسلوكية على وجه أخصّ، إنّما من تبنيه للفكر العقلاني، وما مواقفه المعادية للتجريبية ونقده لها إلّا دفاع عن فكره وآرائه وتبرير لها، فموقف تشومسكي من التجريبية مرحلة لاحقة لنهجه العقلاني.

وتبرز مثل هذه النظرة في رسالة الباحث ثائر عبد الفاضل، وهو يتكلم على المبادئ التي قامت عليها التوليدية التحويلية، إذ يقول: "عمد تشومسكي إلى مجموعة من

الأفكار، فجعلها [مبادئَ] أساسيّة في منهجه التوليدي، وأبرز هذه المبادئ: ١_ نقد المنهج الوصفي البنائي" (عبدالفاضل،٢٠١٣، ص٣٩). فنلحظ أنّ الباحث قد جعل من نقد تشومسكي للمنهج الوصفي البنائي، المبدأ الأوّل من مبادئ التوليدية، ومعلوم أنّ الوصفية البنائية مرتكزة على التجريبية، كما أنّ التوليدية مرتكزة على العقلانية، وسبق أنْ قلنا إنّ العقلانية منهج قائم بنفسه، والتجريبية كذلك، فقضية أنّ التوليدية (العقلانية) يكون مبدؤها الأساس الأوّل نقدَ الوصفية (التجريبية)، هي قضية باطلة. فلو افترضنا أنَّ التجريبية لا وجود لها، وبالتالي لا وجود للوصفية البنائية، فهل هذا يعني أنَّ التوليدية ستفقد مبدأها الأساس الأوّل _وهي القائمة على المنهج العقلاني القائم بنفسه؟ فلا شكَّ أنّ هذا الزعم يمجُّهُ المنطق.

وهناك مَن يذهب إلى أبعد من ذلك، فيرى أنّ ما أُصطلِح عليه بـ(ثورة تشومسكي)، إنّما هو ردة فعل مضادة على ما كان سائدًا أيام (بلومفيلد) في كيفية دراسة الجملة. ونجد صدى هذا الرأي واضحًا في رسالة الباحث عمر عيّاش، حيث يقول: "لابدّ من الإشارة إلى أنّ (بلومفيلد) ركّز على الشكل الخارجي للجملة وأهمل المعنى، وهذا ما دعا (تشومسكي) للقيام بثورة مضادة، ودعا إلى تسليط [الضوء على] الجانب الدلالي للجملة "المعنى" واهتم أيضًا بالجانب الذهني" (عيّاش،٢٠٢١، ص٢٤). فقد ذهب الباحث إلى اختزال (ثورة تشومسكي) برفضها الطريقة التي كانت تُدرَس بها الجملة سابقًا! إنَّ مفهوم الثورة في اللسانيات الحديثة أوسع من أنْ يُختَزَل في هذا المجال الضيق، فهو مفهوم مرتكز على نسق فكريّ متكامل، أساسه العقلانية، وما طريقة دراسة الجملة إلّا تمثيل من تمثيلات أخرى لهذه النسق.

إنّ مثل هذه الآراء التي تقدّمت _وعلى الرغم من هشاشتها أمام البحث_ دعتني إلى التأكّد من تشومسكي نفسه حول هذه المزاعم، فبعثت إليه رسالة، أسأله فيها: (هناك من يقول إنّ التوليدية التحويلية جاءت نتيجة ردة فعل تشومسكي على السلوكية. أهذا صحيح؟ أم إنها جاءت نتيجة الأفكار العقلانية عند تشومسكي، التي دحض بها الأفكار السلوكية بعد ذلك؟). فجاء جوابه عن السؤال واضحًا، إذ قال: "لم يكن هذا النهج ردّ فعل على السلوكيّة، على الرغم من أنّه يتعارض بشكل جذري مع التيارات السلوكيّة التي كانت سائدة في ذلك الوقت (منتصف الخمسينيات)، الأفكار التي بدت لي خاطئة تمامًا" (ملحق١). وممّا تقدّم نخلص إلى نتيجة، مفادها: أنّ نهج تشومسكي العقلاني ممثلًا بالتوليدية التحويلية، لم يُتبَنَّ من قبل تشومسكي نتيجة ردة فعله على النهج التجريبي ممثلًا بالسلوكية ورفضه لها، إنّما كان رفضه للنهج التجريبي بشكل عام والسلوكية بشكل خاص نابعًا من النهج العقلاني الذي يتبنّاه، فرفْضُه هذا هو نتيجة من نتائج أثر العقلانية فيه. وقد يسأل سائل، فيقول: وما الفرق بين الأمرين إذا كانت النتيجة هي رفض النهج التجريبي؟ فنقول له: إنّ الأمر متعلق بالأصالة

الفكرية، وتبني تشومسكي للنهج العقلاني أصيل، وليس مجرد ردة فعل على السياق العام الذي كان سائدًا حينها في مجال البحث بشكل عام، ومجال اللغة بشكل خاص.

وممّا يؤخذ على عدد من الباحثين في التوليدية التحويلية، بناءُ تصوراتهم للعقلانية دون وعي بتاريخ النظرية وبالتحولات والتطورات التي شهدتها، فضلًا عن اعتمادهم على فرضيات خاصة في بناء تصوراتهم. فرضيات لا تؤسِّس الإطار العام للنظرية التوليدية، إنّما هي فرضيات لتدعيم منهج النظرية ومنحها القدرة لتبرهن وتدافع عن مقولاتها الكبرى، وقد تكون هذه الفرضيات مقترحة في نموذج (Model) ما من النماذج النحوية التي جاءت بها النظرية، فالنحو التوليدي التحويلي grammar generative (Transformative) يقوم "على جملة من الفرضيات التي تزايدت وتكاثرت منذ ظهوره سنة ١٩٥٧. هذه الفرضيات عديدة ومتنوعة، منها ما تمّ تجاوزه كليًّا ومنها ما تمّ تطويره وتعميقه. لقد تمّ التخلي مثلًا عن بعض الفرضيات المتعلقة بالتحويلات" (غلفان، وآخرون،٢٠١٠، ص٢١٩). فالتوليدية التحويلية لا تعرف الثبات فيما يتعلق بالفرضيات الصغرى التي تُقترح في نماذجها المتعددة، فكلما ظهر نموذج؛ ظهرت معه فرضيات جديدة، وتُركت فرضيات قديمة، أو طُوِّرت وأُجريت عليها تعديلات، لتتناسب مع الأنموذج المقترح.

وتتجلى مثل هذه المآخذ _التي تكلمنا عليها_ في رسالة الباحث محمود شاكر، الذي يقول: "ثم جاء عام ١٩٥٧م، فحدثت مرحلة جديدة في ميدان دراسة اللغة، وبرز اتجاه آخر يدعو إلى تغيير اتجاه علم اللغة من المنهج الوصفي إلى منهج جديد، وهو ما يعرف بـ (المنهج التحويلي)" (شاكر،٢٠٠٦، ص٥-٦). فما تقدَّم من كلام الباحث محمود شاكر، يُبرِز مغالطتين، قد وقع فيهما الباحث، الأولى أنّه جعل من المنهج التحويلي -كما يسميه- بديلًا للمنهج الوصفي في البحث العلمي لدراسة اللغة، والحقيقة أنّ مقابلة التحويلي للوصفي بوصفه بديلًا له مقابلةٌ لا تصح، ذلك أنَّ المنهج الوصفي أداة رئيسة من أدوات الممارسة العلمية التي هدفها التصنيف فحسب، اعتمادًا على الملاحظة المباشرة للظاهرة المدروسة، "والوصف في اللسانيات البنيوية عمومًا ليس سوى إعادة تنظيم المعطيات اللغوية المتوافرة بشكل مختصر، بحسب معايير وصفية، تهدف في نهاية الأمر إلى إعادة ترتيب ما هو موجود فعلًا ضمن المعطيات المحصَّل عليها" (غلفان، وآخرون،٢٠١٠، ص١٦)، وهذا ما يحدث عمومًا مع النظريات التي تكون التجريبية أساسًا لها. فالمنهج الوصفي هو طريقة اشتغال بحثية لبناء تصور علمي ما لظاهرة ما. أمّا ما يخصّ المنهج التحويلي، فيبدو أنّ الباحث محمود شاكر، قد غاب عن ذهنه أنّ أيّ بحث علمي يتشكّل "من عنصرين أساسيين هما: المنهج والظاهرة. المنهج بوصفه تقنية تُستثمَر لمعالجة ظاهرة ما، والظاهرة بوصفها الواقع المعطى" (الحبّار،٢٠١٤-٢٠١٥، ص١٥)، وعلى أساس هذين العنصرين يُبنى التصور العلمي الذي

يحتاج عادة إلى تمثيل، وفي التوليدية التحويلية ليس التحويل إلّا "جملة من التبريرات الكبرى لوجود مستويين مختلفين من التمثيل، مستوى البنية العميقة [Deep structure] ومستوى البنية السطحية [Surface structure]" (سميث، وآلوت،٢٠٢٠، ص١٨٢)، فهو ليس منهجًا بحثيًّا بقدر ما هو مستوى تمثيليّ. وممّا تقدم يتضح أنّ ثمة بونًا شاسعًا بين المنهج الوصفي و(المنهج التحويلي)، فلكلّ غاياته وأهدافه التي لا تلتقي بأيّ شكل من الأشكال مع الآخر. والذي أوقع الباحث في هذه المغالطة استعماله لمصطلح (المنهج التحويلي)، فذهب به الظنّ إلى جعله مقابلًا للمنهج الوصفي، فإذا كانت غاية الممارسات العلمية التصنيفية (التجريبية) هو الوصف، فإنّ غاية الممارسات العلمية الاستنباطية (العقلانية) هو التفسير، وهذا ما برز في التوليدية التحويلية، وبناء على ما تقدّم، فإن ما دعا إليه تشومسكي ليكون بديلًا عن مجرد الوصف المحض بوصفه هدفًا، هو التفسير.

أمّا المغالطة الثانية التي وقع فيها الباحث محمود شاكر، فهي نتيجة للمغالطة الأولى التي جعل فيها المنهج التحويلي _كما يسميه_ مقابلًا للمنهج الوصفي، إذ زعم أنّ تاريخ تغيير اتجاه علم اللغة من المنهج الوصفي إلى (المنهج التحويلي)، حدث في عام ١٩٥٧م، أي مع ظهور كتاب تشومسكي (البنى النحوية Syntactic Structures)، وهو البذرة الأولى للنظرية، والمتفحص لكتاب (البنى النحوية)؛ سيجد أنَّ الكتاب لا يخلو من ملامح المنهج الوصفي، فالنظرية في هذه المرحلة "طُرحت بكيفية غير واضحة وغير شاملة... وقياسًا إلى نموذج البنيات التركيبية [أو البنى النحوية] يعد النموذج المعيار أكثر وضوحًا وعمقًا في تناول القضايا اللسانية من وجهة نظر توليدية تحويلية، بل إنّه أكثر نضجًا من الناحية التصورية العامة، لأنّه يتضمن الإطار العام للنظرية التوليدية" (غلفان، وآخرون،٢٠١٠، ص٩٥-٩٦)، فعدم نضج النظرية في نموذج ١٩٥٧ أدى بها إلى عدم الاستقلال بمنهج يجعلنا نعدّه بديلًا للمنهج الوصفي، فأقصى ما كانت تطمح إليه النظرية في هذه المرحلة هو الصياغة الشكلية للقواعد، أو بعبارة تشومسكي: "أن تزودنا بطريقة ميكانيكية لبناء نظام القواعد، من ذخيرة من الأقوال" (تشومسكي، ١٩٨٧، ص٧٠). ولكنّ ما تقدّم لا يجعلنا نعدم أثرًا للعقلانية وابتعادًا عن التجريبية التي تنطلق من الواقع الملاحظ لبناء النظرية، أما تشومسكي في (البنى النحوية)، فراح يجرِّب النماذج المقترحة على وفق تصوّر نظري مسبق، وهذا من أبرز ملامح الاستنباط العقلاني في هذه المرحلة المبكرة من عمر النظرية.

ولإحقاق الحقّ ونسبة الأفكار إلى أصحابها؛ فإنّ النصّ السابق من رسالة الباحث محمود شاكر، هو في أصله للدكتور عبده الراجحي ولكنّ الباحث نقله نقلًا مشوَّهًا دون أيّة إشارة للراجحي! والجدير بالذكر أنّ الراجحي لم يذكر (الوصف) مجردًا كما رأينا عند الباحث، إنّما ذكر (الوصف المحضّ)، فضلًا عن أنّ الراجحي لم يذكر في نصّه مصطلح (المنهج

التحويلي)، إنّما ذكر (النحو التحويلي) بوصفه منهجًا بديلًا للمنهج الوصفي المحضّ (الراجحي، ١٩٧٩).

وثمة مغالطة ثالثة قد ارتكبها الباحث، فبعد أن واصل حديثه عن (المنهج التحويلي)، ذكر أنَّ تشومسكي "كان يقيم نظريته على أساس عقلي، ويحاول أن يفسر ظواهر اللغة تفسيرًا عقليًّا يناسب أهميتها، ويكشف عمّا وراءها من دوافع عقلية ومنطقية، وعلى هذا الأساس قسّم الكلام الإنساني على جانبين: الأول: ما ينطق به الإنسان فعلًا وقد سماه (البنية السطحية للكلام). والآخر: هو ما يجري في أعماق الإنسان ساعة التكلم فيدفعه إلى تفضيل هذه الصيغة أو ذاك التركيب، وسماه (البنية العميقة للكلام). ومعنى ذلك أنّ اللغة التي ننطق بها فعلًا إنّما تكون تحتها عمليات عقلية عميقة... ومن أجل ذلك رفض تشومسكي المنهج الوصفي لقصوره وعجزه عن الإيغال فيما وراء الأشكال اللغوية الظاهرة، المنطوقة أو المكتوبة" (شاكر،٢٠٠٦، ص٦-٧). فالباحث هنا، ليدلل على الأساس العقلي للنظرية؛ لجأ إلى (البنية السطحية) و(البنية العميقة)، وعدَّهما مظهرين من مظاهر الأساس العقلي عند تشومسكي، والحقيقة أنّ كلا العبارتين ليست إلّا "علامات متصلة بالهياكل المنهجية للنظرية، وليس لها علاقة بالعمق الفلسفي أو الأولوية النفسية" (سميث، وآلوت،٢٠٢٠، ص١٤٢)، التي أشار إليها الباحث، وإنّ افتراض ثنائية البنية العميقة والبنية السطحية، إنّما هو وسيلة إيضاحية وتفسيرية للنظرية، وكان الأجدر به أن يذكر ثنائية أخرى، تبرهن على معنى أن يكون الأساس عقليًّا في التوليدية التحويلية، ويتمثّل ذلك في ثنائية (الكفاية Competence اللغوية) و(الأداء Performance اللغوي)، فمفهوم الكفاية في النظرية، من أبرز المفاهيم التي تدلّ على الأساس العقلاني للنظرية.

أمّا ما يتعلق برفض تشومسكي للمنهج الوصفي، (لقصوره وعجزه عن الإيغال فيما وراء الأشكال اللغوية) بحسب زعم الباحث، فهو زعم باطل لا يدعمه الدليل، إذا ما علمنا أنّ الباحث يقصد بـ(ما وراء الأشكال اللغوية) الكلامَ النفسيَّ، فهو يقول إنّ تشومسكي "كان مهتمًّا بدراسة العلاقة الجدلية بين الكلام اللفظي والكلام النفسي" (شاكر،٢٠٠٦، ص١٣)، فواضح أنّ الباحث يسعى إلى جرِّ تشومسكي إلى منطقة عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) بهذا القول، لاسيّما وأنَّه يحاول بدراسته إثبات (ملامح النظرية التحويلية في الدراسات البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني .(

ومن المآخذ الأخرى على بعض الباحثين، هو أنّهم يخلطون بين المنهج العقلي بوصفه طريقة تفكير، والعقل (mind) بوصفه مجموعة "أنظمة معرفية مختلفة ناشئة عن الدماغ... تتعلق بكيفية عمل الدماغ في أثناء تعامله مع العالم الخارجي" (تشومسكي،٢٠١٧ أ، ص٢٩). ونلمح مثل هذا الخلط في رسالة الباحث عبد المنعم عبدالله الدليمي، إذ يقول:

"اعلمْ أنَّ الوصفيين كانوا يعتمدون على وصف الظاهر المنطوق، أي الجانب الشكلي للبنية اللغوية... كما هو الحال عند بلومفيلد وقصته المشهورة لجاك وجيل، الذي ترك الاستبطان الذهني وتحوَّل إلى العمل التجريبي... لكنّ تشومسكي أخذ دوره نتيجة عنايته بالجانب العقلي بما فيه العصبي.." (الدليمي٢٠٢١، ص٣٥). فالظاهر من هذا النصّ أنّ الباحث يحاول أنّ يقارن بين منهجين في دراسة اللغة، فذكر الوصفية التجريبية، ولكنَّه بدل أنْ يذكر العقلانية التي تقابل التجريبية بوصفها منهجًا مختلفًا؛ ذكر مجالًا من المجالات التي تُعنى بها العقلانية ممثلة بالتوليدية، وهو العقل، أما ذكْرُه (العصبي)، فلا وجه له في هذه المقارنة!

وختامًا أقول إنّ الدور البارز للمنهج الوصفي في الممارسات العلمية التصنيفية، لا ينفي عنه أنْ يدخل في ممارسات أخرى، وهذا نابع من اختلاف الرؤى في طبيعة إجراءات المنهج وخطواته أثناء الممارسة العلمية عند الممارسين لها، فكلٌّ يحاول تطويعه خدمة لأهدافه البحثية، ولا بدّ من الاعتراف بأنّ "مناهج البحث في اللغة متعددة ومتجددة، لأنّها قائمة على رؤى واجتهادات فردية تحرص دومًا على استيعاب الظاهرة اللغوية والإحاطة بخصائصها والبحث عن أسرارها" (ساسي،٢٠٠٧، ص٣٠)، والمنهج الوصفي منهج يصعب الفكاك منه في الممارسة العلمية التي تسعى إلى الضبط والدقة، وليس تشومسكي بمنأى عن هذا السعي. فثمة نقطتا افتراق بين التوليدية التحويلية، والبنيوية _لا سيّما الأمريكية_ تتعلقان بطبيعة النظر إلى المنهج الوصفي، أولاهما أنّ البنيوية تقف عند حدود الوصف المحضّ لما هو ظاهر وملاحظ في دراستها للغة، فيما تسعى الثانية إلى تجاوز حدود الوصف إلى التفسير. أمّا النقطة الثانية، فتتولد عن الأولى، وهي أنّ التوليدية التحويلية لتُقدِّم التفسير؛ تذهب إلى أبعد ممّا هو ظاهر وملاحظ، سعيًّا للوصول إلى الكفاية اللغوية في الذهن. والتعامل مع العمليات الذهنية عُدَّ مأخذًا على تشومسكي _كما سيأتي لاحقًا، بوصفه ضربًا من الميتافيزيقيا، لذلك سيظهر ما يسمى بـ(مشكلة ديكارت)، التي سنأتي عليها، بوصفها أساسًا فلسفيًّا ومظهرًا من مظاهر عقلانية تشومسكي، ونتقصّاها من خلال الرسائل الجامعية العراقية، ولكن بعد أنْ نتقصى (مشكلة أفلاطون).

مشكلة أفلاطون:

إنّ أحد الأسئلة الفلسفية القديمة التي فعّلها تشومسكي وأعاد بعثها من جديد، ذلك السؤال الأفلاطوني المتعلق بطبيعة المعرفة البشرية، وكان مبعث السؤال أنّ سقراطًا طلب من محاوره (مينون) أنْ يستدعي أيَّ واحد من خدمه، ليُثبت له أنَّ المعرفة موجودة بالقوة في الذهن. ففعل (مينون) كما طُلِب منه، فأحضر خادمًا شابًّا من خدمه، وراح سقراط يبرهن لمينون أنّ هذا الشاب يعرف مبادئ الهندسة دون تدريب مسبق، وذلك بجعله يكتشف مبادئ الهندسة عن طريق الأسئلة التي وُجِّهتْ إليه (افلاطون،٢٠٠١، وتشومسكي،٢٠٢٢). وتثير

هذه التجربة مشكلة، وهي كيف أمكن للخادم الشاب أنْ يكتشف صدق براهين الحساب، دون أنْ يسبق له العلم بها ولا حتى التدرُّب عليها؟ وعُرِفت هذه المشكلة بـِ(مشكلة أفلاطون)، التي أعاد صياغتها الفيلسوف برتراند راسل، بالشكل الآتي: كيف أمكن لأفراد النوع البشريّ أن يعرفوا ما يعرفونه، على الرغم من قِصَر تجربتهم مع الكون ومحدوديتها؟ وقد استثمر تشومسكي هذه المشكلة في نظريته، وصاغ منها السؤال المتعلق بكيفية نشوء نظام المعرفة اللغوية في العقل، الذي وصفه بأنّه حالة خاصة وهامة (تشومسكي،١٩٩٠). فمشكلة أفلاطون _كما عبَّر عنها تشومسكي_ "هي أن نفسِّر كيف نعرف هذا القدر الكبير جدًا، إذا ما أخذنا في الاعتبار أنّ ما هو متاح لنا من أدلة ضئيل للغاية" (تشومسكي،١٩٩٣، ص٤٥). ومعلوم أنَّ حلَّ أفلاطون لهذه المشكلة قائم على افتراض وجود معرفة سابقة في حياة سابقة (عالم المُثُل)، ولكنّ تشومسكي يقترح أنّ الجانب الأكبر من النظام اللغوي هو جزء من الإعداد الأحيائي للإنسان، وعلى هذا فالمعرفة اللغوية موجودة في العقل البشري، وأنّ لهذا المكون الأحيائي خصائص محدَّدة، وأنّه يعطي المعرفة بلغة ما إذا ما توفّرت تجربة لغوية. (تشومسكي١٩٩٠، وباقر٢٠٠٢). فتفسير (مشكلة أفلاطون) يمثل واحدًا من أهم أهداف النظرية اللسانية التي سعى تشومسكي لتحقيقها.

وعلى الرغم من أنّ السؤال المتعلق بـ(مشكلة أفلاطون)، يمثِّل واحدًا من أهمّ الأسئلة التي سعت النظرية لتقديم إجابة وتفسير مناسبين له، فإنّ ما نجده في الرسائل الجامعية العراقية لا يرقى إلى مستوى هذا السؤال. ونقول بكثير من الاطمئنان: إنّ ما وجدناه فيما يخصّ (مشكلة أفلاطون)، إمّا منسوبًا إلى ديكارت مرة، أو مجتزأ من سياقه الفلسفي مرة ثانية _على الرغم من ذكْر سؤال تشومسكي الناشئ عن المشكلة الأفلاطونية، أو لا يتعدّى حدود الإشارة العابرة مَرّة ثالثة وبلا ذكر لـ(مشكلة أفلاطون)! وهذه الأخيرة نجدها في رسالة الباحثة سلوى يونس النعيمي (النعيمي،٢٠١٢)، وفي رسالة الباحثة بشائر علي عبد (عبد،٢٠١٢). فحين تحدثنا عن الفطرة اللغوية أو كما يسميانها أحيانًا بـ(السليقة)؛ وردت إشارات تتعلق بالمشكلة الأفلاطونية بلا ذكر لأصلها في سياقها الفلسفي، وبلا إلماح إلى أنّها مجتلبة من التراث الفلسفي العقلاني، ومن أفلاطون على وجه التحديد. وسبب هذا أن الباحثتين كانتا ترومان شيئًا آخر، فذكْر الإشارات المتعلقة بـ(مشكلة أفلاطون) ليس لذاتها، وربّما يكون تتبُّع المشكلة في الأصل الذي ظهرت فيه لا يخدم أهداف الباحثتين! لاسيّما إذا ما علمنا أنّ عنوان رسالة الباحثة سلوى يونس هو (النحو التوليدي والتحويلي وملامحه في مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري)، وعنوان رسالة الباحثة بشائر علي هو (النظرية التوليدية التحويلية وملامحها في كتاب المقتضب للمبرد)، فتجريد أفكار النظرية من أصولها؛ يجعلها في وضع أفضل للمقارنة بالتراث العربي إذا كان الهدف منها إبرازَ ملامحها فيه!

أمّا ما نُسِب إلى ديكارت _خطأً_ فيما يخصُّ (مشكلة أفلاطون)، فجاء واضحًا صريحًا في رسالة الباحث جابر عبد الأمير التميمي، ففي معرض حديثه عن الفطرة اللغوية وكيفية اكتساب اللغة يقول: "وفي هذه النقطة _كيفية اكتساب الطفل للغة وقدرته على الحكم بصحتها أو خطئها_ نجد أنّ (تشومسكي) قد تأثّر بالفيلسوف (رينيه ديكارت)" (التميمي،٢٠٠٣، ص٣٤). إنّ ما يعنينا في نصّ الباحث هذا، هو نسبة تأثُّر تشومسكي بديكارت في مسألة (كيفية اكتساب الطفل للغة) فحسب. فالباحث قد وقع في خلط مضلِّل، فتشومسكي نفسه ذكر في مناسبات كثيرة أن سؤال (كيف تُكتَسب معرفة اللغة؟) مستوحى من أفلاطون، وأطلق عليه (مشكلة أفلاطون) (تشومسكي،١٩٩٠، وتشومسكي،١٩٩٣)، فالتأثير من أفلاطون لا ديكارت، وإنّ نسبة التأثير إلى (أفلاطون) ضرورة، ذلك أنّها تساعد على تعميق الفهم لمقاصد تشومسكي، فربط المشكلة بسياقها الفلسفي وبظروفها التي ظهرت فيها، يوضِّحها ويعطيها بعدًا أعمق في الفهم. ويجدر بالذكر أنّ الباحث جابر عبد الأمير، بعد أن ذكر ما ذكر؛ يحيل إلى كتاب لخليل عمايرة، وحين رجعتُ إلى الكتاب المُحال إليه؛ لم أجد فيه ما يشير إلى هذا الزعم! فعمايرة ذكر أنّ تشومسكي تأثّر بديكارت "الذي كان يرى أنّ الإنسان يختلف عن الحيوان في أنّ له عقلًا، وأنّ أهم خصائص هذا العقل إنتاج اللغة، وهذه نقطة معروفة عند أصحاب المذهب العقلي" (عمايرة،١٩٨٤، ص٥٥). فنصّ عمايرة لا يحمل أدنى إشارة إلى قضية اكتساب اللغة.

وثمّة مَن تناول المشكلة _ذاكرًا سؤال تشومسكي الناشئ عنها_ بعيدًا عن سياقها الفلسفي، وهذا ما نجده في رسالة الباحثة رفعت كاظم السوداني. ففي معرض حديثها عن نمو اللغة واكتسابها، تطرح تساؤلًا تشومسكيًّا، فتقول: "يبقى السؤال كيف يستطيع هذا الكائن الصغير معرفة القواعد اللغوية بمدة يسيرة؟" (السوداني،٢٠٠٠، ص١٩) ثمّ تفترض أنّ هناك طفلًا يسمع الكلام ولا يفقهه، ويبدأ بلفظ أصوات غير منسجمة إلى أنْ يبدأ بلفظ الكلمة فالكلمتين، حتى يصل إلى لفظ تراكيب لغوية بلا تخطيط لعملية تعلُّم الكلام ومن غير تدخُّل الوالدينِ، فلو كانت عملية اكتساب محضّ؛ لوجب تفسير تَرْك الطفل للتراكيب المنحرفة واستبدالها بتراكيب صحيحة، تتماشى مع نموّه الإدراكي (السوداني،٢٠٠٠). وبعد عرْض الباحثة هذا، تقول: "فقد يصحّ إطلاق عملية الاكتساب على مهارات معرفيّة معينة، فيما لا يصحّ ذلك على اللغة" (السوداني،٢٠٠٠، ص١٩). والباحثة في كلّ هذا، لا تشير حتى مجرد إشارة إلى (مشكلة أفلاطون)، التي أعاد صياغتها برتراند راسل! فهي قد تناولت القضية بعيدًا عن سياقها الفلسفي الذي من شأنه أن يعمِّق الرؤية ويُبعِد اللبس الذي وقعت فيه.

وعلى الرغم من أنّ افتراض الباحثة يتوافق مع رؤية تشومسكي، لكن قولها إنّ عملية الاكتساب لا تصحّ على اللغة قولٌ فيه لبس وغير صحيح، ذلك أنّه يوحي بأنّ الإنسان

يولَد ومعه اللغة! فكيف تفسِّر الباحثة هذا، إذا كانت تجزم بعدم صحة الاكتساب؟ فهذا الزعم يقود إلى مشكلة أخرى وتفنِّد الزعم في الوقت نفسه، وهي أنّه لماذا هناك لغة عربية وأخرى إنكليزية..؟ ولو أنّ الباحثة ربطت سؤال تشومسكي المتقدِّم بالسياق الفلسفي الذي جاء منه، لما وقع هذا الإشكال. ففي المحاورة التي ذكرها أفلاطون، قد عرف الخادم ما عرف، "بمجرد استثارة حدوسه الفطرية (الواضحة) حول الخصائص الهندسية" (كوتنغام،١٩٩٧، ص١٣٩)، فالمعرفة _عند أفلاطون_ موجودة بالفطرة، وهي قَبْليّة من (عالم المُثُل)، ولكنّ تفعيلها يحتاج إلى استثارة، وهذا ما فعله سقراط بتوجيه الأسئلة للخادم، وبهذا اكتسب الخادم معرفة بالمسائل التي طُرِحت عليه. ويذهب تشومسكي المذهب نفسه فيما يتعلق باللغة، حيث يقول: "وهي كذلك جزء من إعدادنا الأحيائي المسبَق الذي توقظه التجربة، ويُشحذ ويُغنى خلال تفاعل الطفل مع بني البشر والعالم المادي من حوله." (تشومسكي،١٩٩٣، ص٥٣) وهذا جزء من حلّ تشومسكي لمشكلة ما ينتهي البالغون إلى معرفته من اللغة، والتي هي أكبر بكثير من كلّ ما تعرضوا له في طفولتهم، وأغزر ممّا تزودهم به الخبرة (تشومسكي،٢٠١٢، وبول،٢٠٠٩). فتشومسكي يرى أنّ الطفل يولد وهو مستعِّد ومجهَّز لاكتساب اللغة بأداة مصممَة، لكي تأخذ أنواعًا محددة من الاضطرابات الصوتية كمدخل لها، وتخلق نظامًا معرفيًّا لفهم واستخدام اللغات كمخرج لها، فهي تحتاج إلى محفِّز لكي تعمل (تشومسكي،٢٠١٧ ب). بقي أن نشير إلى أمر أغفلته الباحثة رفعت كاظم، وهو أنّ تشومسكي يحدِّد مفهومه لـ(الاكتساب acquisition) بأنَّه "ليس شيئًا يعمله الطفل في واقع الأمر؛ بل هو شيء يحدث له إذا وُضِع في بيئة ملائمة. وهو أمر يشبه نموَّ جسم الطفل ونضجه بطريقة محدَّدة مسبقًا حين يقدَّم له غذاء ملائم وبيئة حافزة. ولا يعني هذا أنّ البيئة لا تسهم بشيء فيه، فهي التي تثبِّت بها متغيرات النحو الكلي، وذلك ما ينتج عنه لغات مختلفة" (تشومسكي،١٩٩٠، ص١٨٦. وتشومسكي،٢٠١٢، ص٢٣، وتشومسكي،٢٠٠٥، ص٩٠). ويقول ستيفن كراشن: "حينما تكون عملية الاكتساب جارية، فإنّ المكتسب لا يكون على دراية بالعملية ولا بنتائجها"(Krashen. 1989.p٨)). ومعنى هذا أنّ الاكتساب خالٍ من القصديّة، فيحدث بلا وعي حين يُستجاب للحوافز أو المدخلات الخارجية، على الرغم من كونها شيئًا لا يكاد يُذكَر قياسًا بالكم الهائل من المعرفة اللغوية عند الإنسان، وهكذا يُفعَّل النظام الموجود أصلًا.

وأخيرًا، ثمّة أمر لابدّ من الانتباه إليه، لأنّ ما سيأتي يعتمد عليه بدرجة كبيرة، وهو أنّ مقولة المعرفة الفطرية عند البشر، قد اتضحت معالمها عند أفلاطون، وبها آمن العقلانيون _وإنْ اختلفت معالجاتهم لها. ويتمثّل استثمار تشومسكي لمقولة (المعرفة الفطرية) في كونه اعتمد مبدأين في اشتغاله عليها، الأول منهما أوصله إلى الثاني. فأمّا الأول، فهو مبدأ تعميم المقولة لتشمل المعرفة اللغوية، على الرغم من أنّ محاورة (مينون) التي وقف عندها

تشومسكي كثيرًا، لاسيّما في كتابيه (اللغة ومشكلات المعرفة) و(المعرفة اللغوية _طبيعتها وأصولها واستخدامها) (تشومسكي،١٩٩٠، وتشومسكي،١٩٩٣)، لم يُشر فيها أفلاطون إلى اللغة! وأمّا الثاني، فهو التخصيص، ويتمثل بلجوء تشومسكي إلى الاقتصار على اللغة وما يتعلق بها، ودراستها بوصفها مظهرًا من مظاهر الفطرية، وبالتالي يمكنها _أي دراسة اللغة_ أنْ تقدم مدخلًا لـ(مشكلة أفلاطون). ويرى تشومسكي في هذا السياق، أنّ القدر الأكبر من العناية بدراسة اللغة يكمن في حقيقة أنّها تقدم مدخلا لـ(مشكلة أفلاطون)، فإذا ما تمّ اكتشاف شيء ما، يتعلق بالمبادئ التي تؤدي دورًا في بناء النظام الإدراكي الخاص _أي مبادئ ملكة اللغة؛ فمن الممكن التقدم لإيجاد حلّ لحالة واحدة على الأقل، خاصة وهامة جدًا من الحالات المتعلقة بـ(مشكلة أفلاطون)، وحينها يمكن السؤال عمّا إذا كان من الممكن تعميم هذه المبادئ على حالات أخرى (تشومسكي،١٩٩٣).

مشكلة ديكارت:

ليس غريبًا أن نجد تشومسكي يعنون كتابًا من أهم كتبه بـ(اللسانيات الديكارتية Cartesian linguistics)؛ إذا ما علمنا الأثر الذي أحدثته فلسفة ديكارت في فكر تشومسكي. فقد كانت الفلسفة الديكارتية الرافد الأبرز الذي استقى منه تشومسكي كثيرًا من أفكاره، جاعلًا من بعض مقولات ديكارت أو من شايعه منطلقاتٍ للبحث اللساني، وذلك بعد أن صاغها على شكل تساؤلات، لتكون الشغل الشاغل لِما يجب أن يُوليه الباحث في ميدان اللسانيات عنايتَه _بحسب وجهة نظر تشومسكي.

كان من نتائج تأثير فلسفة ديكارت أنْ برز عند تشومسكي ما يعرف بـ(مشكلة ديكارت)، وقد أفرز هذه المشكلة السؤال الثالث من الأسئلة التي وردت في كتابيه (اللغة ومشكلات المعرفة) و(المعرفة اللغوية _طبيعتها وأصولها واستخدامها)، وهو السؤال المتعلق بالكيفية التي تُستعمل بها المعرفة اللغوية في الكلام. ولهذا السؤال مظهران، هما: مشكلة الإدراك، ومشكلة الإنتاج. أما مشكلة الإدراك، فمتعلقة بالكيفية التي نفسِّر بها ما نتلقاه، ويعدها تشومسكي أمرًا ثانويًّا. وأما مشكلة الإنتاج، فمتعلقة بما نقوله وننتجه، وهي المشكلة التي يسميها (مشكلة ديكارت) ويعدها أكثر أهمية؛ ذلك أنّها تعالج المظهر الإبداعي (Creativity) لاستعمال اللغة (تشومسكي،١٩٩٠، وتشومسكي،١٩٩٣). وقد جعل ديكارت من العقل العلامةَ الفارقة بين الإنسان والحيوان، ورأى أنّ اللغة هي الدليل الأبرز على وجود العقل عند الإنسان. فهو يرى أنّ أغبى الناس يمكنه أنْ يُركِّب كلامًا يجعل به أفكاره مفهومة، بينما لا يستطيع أذكى الحيوانات أنْ يفعل ذلك، مهما كان كاملًا ومهما خدمته الظروف. وليس سبب عدم قدرة الحيوانات على الكلام نقصًا في الأعضاء، ذلك أنّ بعض الحيوانات كالببغاء تستطيع أحيانًا أنْ تقلِّد نطْق الإنسان للكلمات، ولكنّها لا تستطيع أنْ تنطق نطقًا يدلّ

على أنّها تعي ما تقول، في حين أنّ الصمّ والبكم من الناس معتادون على استنباط إشارات يتفاهمون بها مع أقرانهم وبقية الناس. وهذا لا يدلّ على أنّ للحيوانات عقلًا أقلّ ممّا للإنسان، بل يدلّ على أنّها لا تملك عقلًا مطلقًا، فاللغة لا تحتاج إلّا قليلًا من العقل، ويرى ديكارت أيضًا، أنّه لا ينبغي لنا أن نخلط بين الكلام وغيره من الحركات التي تعبر عن الانفعالات التي تجيدها الآلات أو الحيوانات (ديكارت،٢٠٢٠). وكثيرًا ما استدلّ تشومسكي بأفكار ديكارت هذه على أنّ اللغة خاصية نوع، انمازت بكونها إبداعية، فهذا "المنهج الديكارتي في التفريق بين الحيوان والإنسان، هو الذي أصّل فكرة الجانب الخلّاق في اللغة. وهذه الفكرة بدت أكثر وضوحًا ورسوخًا عند المفكر الألماني همبولدت" (السيد،١٩٨٩، ص٥٣). فلم يكن ديكارت المنهل الوحيد الذي نهل منه تشومسكي الأفكار المتعلقة بإبداعية اللغة، إنّما هنالك آخرون، يأتي على رأسهم همبولدت.

ويرى تشومسكي أنّ التأكيد الديكارتي على المظهر الإبداعي لاستعمال اللغة، يتمثّل في المحاولة التي قام بها همبولدت لتطوير نظرية شاملة للسانيات العامة، وتحديد اللغة بأنّها نشاط/فعالية بدلًا من كونها محصولًا، وبأنّها فعاليّة توليدية بدلًا من كونها ناتجًا لا حياة فيه، فهي _أي اللغة_ استعمال لا محدود لوسائل محدودة. (تشومسكي،٢٠٢٢)، وإنّ هذه لأفكار التي تأثر بها تشومسكي واستثمرها في بناء النظرية، نجد لها صدى في بعض الرسائل الجامعية للباحثين العراقيين الذين كتبوا عن النظرية، بيْد أنَّه صدى لا يتناسب وأهميّتها في تشكيل رؤية تشومسكي اللغوية.

وربّما تتضح الصورة أكثر حين نورد نصوصًا ممّا ذكره الباحثون، ونعلق عليها. من ذلك ما جاء في رسالة الباحثة رفعت كاظم في معرض حديثها عن (الإبداعية)، حيث تقول: "وتتجلى أهمية آراء تشومسكي في تركيزه في الجانب الإبداعي للغة، الذي اُختصّ به الإنسان من سائر الكائنات الحية الأخرى، التي تكون وسائل تخاطبها ذات نهايات مغلقة، عدا بعض أشكال المخاطبة عند الحيوان، كرقص النحل، إذ تتشكل جمل جديدة كلما تغيرت الإشارة" (السوداني،٢٠٠٠، ص٢٦). إنّ الباحثة قد نقلت هذا النص من جون ليونز، ولكنّها تصرّفت به تصرّفًا مُخِلًّا، فبدا من كلامها كأنّ النحل قادر _كما الإنسان_ على إنشاء جمل جديدة كلما تغيرت الرقصة! والحقيقة أنّ الرقص نظام خاص من نُظُم التواصل، يستعمله النحل، ولكنّه نظام تواصلي مختص بحدث معيَّن لا يتعداه، وهو تحديد المسافة بين الرحيق والخلية. فالعلاقة المتبادلة بين الإشارة عن طريق الرقص والمعنى، إنّما هي علاقة بسيطة، أمّا الإنسان، فيملك القدرة على إنشاء جمل جديدة من وحدات غير مترابطة أصلًا وفي مواقف تواصلية مختلفة، وليس الاقتصار على التنوع الإشاري في حدث تواصلي واحد (ليونز،١٩٨٥). وعلى الرغم من وجود صدى أفكار ديكارت المتعلقة بالإبداعية في ثنايا

حديث الباحثة، فإنّ ديكارت ذا التأثير الكبير في فكر تشومسكي، لم يَرد ذكرُه في حديثها، ولا حتى همبولدت! لاسيّما وأنّها تتحدث عن الإبداعية. وربّما مردّ هذا أنّها اعتمدت على كتاب جون ليونز (نظرية تشومسكي اللغوية)، الذي لم يذكر ديكارت أو همبولدت في حديثه عن الإبداعية، ذلك أنّ دراسته كانت وصفية فحسب للنظرية. أمّا دراسة الباحثة الموسومة بـ(المنهج التوليدي والتحويلي _دراسة وصفية وتاريخية)، ففضلًا عن كونها دراسة وصفية، فهي تاريخية أيضًا، وهذا ما أغفلتْه الباحثة، وعُدَّ مأخذًا عليها.

وتقول الباحثة رفعت كاظم في موضع آخر: "ونرى في خاصية الإبداعية في اللغة انتصارًا للمعنى على اللفظ، فاللفظ محدَّد ينتج لنا ما لا حدّ له من المعاني.. حتى ليعبِّر اللفظ الواحد عن مجموعة معان تميزها السياقات المختلفة في تراكيب استخدمت هذا اللفظ" (السوداني،٢٠٠٠، ص٦٠). وتحيل الباحثة بعد هذا الكلام إلى مجموعة من المصادر، وهي(النحو بين عبد القاهر وتشومسكي، والألسنية بين عبد القاهر والمحدثين، ومقدمة دلائل الإعجاز)، وكلام الباحثة في سياقه هذا يجانب الصواب، فيبدو أنّها انجرت خلف جدلية اللفظ والمعنى! وصارت تتحدث عن اللفظ لا الجملة التي هي بؤرة العناية في التوليدية التحويلية. وعلى أيّة حال، فإنّ حمولات اللفظ المعنوية تبقى محدودة مهما تعددت سياقاتها، وإذا كان المقصود بعدم محدودية المعنى أنّه راجع إلى وضع اللفظ في جمل مختلفة؛ فإنّ الجمل التي هي ألفاظ أصلًا غير محدودة، واللامحدودية عند تشومسكي تتعلق بالجمل أساسًا. والذي أوقع الباحثة في هذه المغالطة، أنّها اعتمدت على مصادر تمارس لعبة الدفاع عن القديم بِليِّ أعناق الأفكار الحديثة، ومحاولة ربطها بالقديم، لتبدو كما لو أنّها مجتلبة منه. فالباحثة صارت ضحية لهذا الاستقطاب الحاصل في بعض الدراسات.

وعلى الرغم من جلاء الأثر الديكارتي في تشومسكي، فإنّ هناك باحثينَ ذكروا آراء تتردد في نسبة الأفكار الديكارتية لديكارت أو من شايعه، لاسيّما الأفكار المتعلقة بقدرة الإنسان التي تمكنه من إنتاج جمل لم يسمعها من قبل أو إدراكها. وهذا ما نجده في رسالة الباحث محمود شاكر الذي يقول: "ويذهب بعض الدارسين إلى أنّ تشومسكي في قوله بالمقدرة على اللغة الكامنة في الإنسان التي تمكنه من استيعاب اللغة، والنطق بعبارات لم يسمعها من قبل، ((ربّما كان متأثرًا بالمفكر الفرنسي ديكارت..)). ويقال أيضًا إنّ تشومسكي ((ربّما كان متأثرًا بالعالم الألماني مولر...))" (شاكر،٢٠٠٦، ص٨)، وهذا ما يذكره أيضًا الباحث ثائر عبد الفاضل في رسالته (عبدالفاضل،٢٠١٣)، والباحثان في هذا ينجرَّان خلف ما قاله الدكتور أحمد سليمان ياقوت (ياقوت،١٩٨٣)، على الرغم من أنّه لا خلاف بين الدارسين بشكل عام حول تأثّر تشومسكي بديكارت وهمبولدت في هذه الأفكار تحديدًا، فحتى تشومسكي ينسب هذه الأفكار لديكارت وهمبولدت صراحة في مواضع كثيرة من كتبه _كما رأينا. فلا مبرر لهذا

التردد إذا ما علمنا أنّ طرف الاحتمالية الآخر هو الألماني مولر، الذي لم يرد اسمه في كتاب تشومسكي (اللسانيات الديكارتية)، الكتاب الذي يحمل في طيّاته الأصول الفلسفية التي استقى منها تشومسكي معظم أفكاره.

ويزعم الباحث حسين كاظم العابدي زعمًا غريبًا في أطروحته؛ حيث يقول بخصوص تشومسكي: "ويظهر ولاءه لهمبولدت جليًّا في ما كتبه في مقدمة كتابه (جوانب من نظرية النحو)... والغريب في الأمر أنَّه انتقد همبولدت وبول هيرمان Paul Herman في المؤتمر الدولي التاسع للسانيين المنعقد في عام ١٩٦٢؛ لأنّهما لم يأخذا بمبدأ الإبداع اللغوي، وبالوقت نفسه لم نجده يذكر كلمة إيجابية بحق سوسير في كتاب (جوانب من نظرية النحو)" (العابدي،٢٠١٣، ص١٧-١٨). فهو يذكر أنّ تشومسكي في عام ١٩٦٢ انتقد همبولدت وبول هيرمان، لأنّهما لم يأخذا بمبدأ الإبداع اللغوي، ويحيل في الهامش إلى (The Logical Basis of Linguistic Theory)، وحين رجعت إلى هذا المصدر؛ لم أجد تشومسكي يقول ما يدعم زعم الباحث، بل وجدت أنّ تشومسكي يذكر نصًّا لبول هيرمان ويعلِّق عليه موافقًا، إذ يقول: "(أحد الأخطاء الأساسية في علم اللغة القديم هو التعامل مع جميع الأقوال البشرية، كما لو أنها ثابتة في الاستخدام العام للغة، وكأنها شيء يتولد من الذاكرة فقط) (بول، ١٨٨٦، ٨-٩٧). [ويعلِّق تشومسكي قائلًا:] إن نظرية اللغة التي تتجاهل هذا الجانب الإبداعي للغة هي ذات أهمية هامشية فحسب (Chomsky,1962,p٥١٢). أمّا عن همبولدت، فلا نكاد نجد تشومسكي يتحدث عن المظهر الإبداعي للغة دون الإشارة إلى إسهاماته في هذا الجانب، فمنذ أن تبنّى تشومسكي القول بإبداعية اللغة، رافقه اسم همبولدت بوصفه عرّاب هذه السمة. وعلى الرغم من كلِّ هذه الأدلة التي تدحض ادعاء الباحث، لكن لم نقطع بزيف ادعائه، فربّما وجد أصلًا له ولكنّه أخطأ الإحالة إلى موضع المعلومة الصحيح، ولهذا بعثت برسالة إلى تشومسكي أسأله فيها إنْ كان قد قال ما أشار إليه الباحث في المؤتمر المذكور، فجاء جوابه: "لا صحة لذلك. بل قلت العكس" (ملحق٢). وبهذا يتبين أنّ طبيعة خطاب الباحث لم يكن لها ما يبررها، لاسيّما وأنّه يتكلم على شيء غير موجود أصلًا بأسلوب يُلمَح فيه التحامل.

وما دام الحديث عن الإبداعيّة، فينبغي لنا فهْم المصطلح فهمًا يتساوق مع قصديّة مستعمله (تشومسكي)، فلكلّ نظرية مصطلحاتها الخاصة، وقد يكون مصطلح ما شائعًا وله مفهومه العام، ولكنّه يوظَّف في نظرية ما؛ فيكتسب خصوصيّة تمنحه مفهومًا معيَّنًا. وإنّ إغفال مثل هذا الأمر؛ يُجرِّد المصطلح خصوصيّته ويجعله فضفاضًا، وقد يَدخُل في المفهوم المنضوي تحته ما لا يقصده مستعمِل المصطلح. وحين نطالع رسالة الباحث إسماعيل حميد، يظهر لنا ارتباك في المفهوم الذي يقدمه الباحث، إذ يقول: "يرى [أي تشومسكي] أنّ الإنسان قادر على إنتاج عدد لا متناه من التراكيب في عملية الخَلق ولإبداع؛ لأنّ الإنسان المبدع

((هو الذي يستطيع أن يكوِّن عددًا كبيرًا من الروابط اللفظية وغير اللفظية للأفكار))" (حميد،٢٠٠٤، ص١٥). فبعد أن ذكر الباحث قدرة الإنسان اللامتناهية على إنتاج الجمل _وهذا صحيح_ أردفها بتعريف الإنسان المبدع (السرور،٢٠٠٢)، كما لو أنّه يعلِّل هذه القدرة الإبداعية! وقول الباحث (الإنسان المبدع هو الذي يستطيع...) يوحي بأنّ البشر صنفان من حيث الإبداع وعدمه، وهذا التصنيف وإنْ كان صحيحًا؛ إذا ما نظرنا إلى الإبداع بمفهومه المتعارف عليه عمومًا بحمولاته الجمالية، إلّا أنّه تصنيف مجانب للصواب في السياق الذي ذكره فيه الباحث. فتشومسكي لا يقصد بالإبداع أكثر من الاستعمال العادي اليومي للغة بما يصاحبه من خصائصها المميَّزة، كالحرية من تحكم المثيرات الخارجية... (تشومسكي،٢٠٢٢، وتشومسكي،١٩٩٠)، وبهذا يكون الإبداع الذي يقصده تشومسكي خصيصة نوع، وهو الإنسان، فالإبداع عام يمتلكه كلُّ ذي عقل، وليس خصيصة صنْف كما يوحي كلام الباحث.

بقي أن نشير إلى أنّ ما تناولناه، لا يمثِّل كلّ الأسس الفلسفية التي قامت عليها التوليدية التحويلية؛ ذلك أنّنا اقتصرنا على ما جاء في الرسائل الجامعية العراقية، وإلّا فهي أوسع وأشمل بكثير ممّا تمّ تناوله. فثمة فلاسفة كلاسيكيون وهيوم _على سبيل المثال لا الحصر_ تأثر بهم تشومسكي، وكان لأفكارهم أثر في تشكيل رؤيته وبناء فكره الذي أفرز النظرية التوليدية التحويلية، ولكنّ اهتمام الباحثين الذين تطرقوا للأصول الفلسفية اقتصر على ديكارت الذي يعدّ الملهم الأبرز لتشومسكي. ويبدو أنّ التركيز على ديكارت وإغفال الآخرين، نابع من متابعة بعض الباحثين لمنهج الدكتور عبده الراجحي في كتابه (النحو العربي والدرس الحديث)، الذي كان كثير الحضور عند معظم الباحثين. فحين تكلم الراجحي على الأصول النظرية للتوليدية التحويلية، تناول ديكارت وقليلا من أثر همبولدت فحسب، وربّما طبيعة بحثه ومنهجه وأهدافه تبرِّر له مثل هذا الاقتصار، فكتابه ليس خاصًّا بالتوليدية التحويلية التي لا تمثِّل إلّا بابًا من بابين اشتمل عليهما الكتاب. ولكنّ ما المبرِّر لباحث يختصّ بنظرية ويبحث لها عن ملامح وجذور _على سبيل المثال_ في التراث العربي، وهو يغفل عن كثيرٍ من أسسها الفلسفية؟!

النتائج

- لم يكن تبنّي تشومسكي للعقلانية نابعًا من معارضته لمبادئ السلوكية، إنما الذي حدث العكسُ، فهو تبنٍّ أصيل، وليس مجرد ردة فعل على ما كان سائدًا. وهذا ما غفل عنه بعض الباحثين العراقيين في رسائلهم الجامعية.
- ذهب بعض الباحثين إلى أنّ ما أُصطلِح عليه بـ(ثورة تشومسكي)، إنّما هو ردة فعل مضادة على ما كان سائدًا أيام (بلومفيلد). والحقيقة أن مفهوم الثورة يرتكز على نسق فكريّ متكامل، وما ذكره بعض الباحثين ليس سوى تمثيل من تمثيلات أخرى لهذه النسق.
- كان للأفكار التي تأثر بها تشومسكي واستثمرها في بناء النظرية، صدى في بعض الرسائل الجامعية العراقية، بيْد أنَّه صدى لا يتناسب وأهميّتها في تشكيل رؤية تشومسكي اللغوية.
- أسهم اقتطاع الباحثين للمقولات والأفكار الفلسفية من سياقاتها الأصل بوقوع كثير من المغالطات، فضلًا عن أن نسبتها إلى غير أصحابها، قد خلق نوعًا من الإرباك في كيفية استثمارها لاستجلاء حقيقة النظرية التوليدية التحويلية.
- انصبّ تركيز معظم الباحثين على ديكارت، وأغفلوا دور فلاسفة آخرين كأفلاطون ولايبنز وهيوم. وهذا نابع من متابعة بعض الباحثين لمنهج الدكتور عبده الراجحي في كتابه (النحو العربي والدرس الحديث)، الذي كان كثير الحضور عند معظم الباحثين. فحين تكلم الراجحي على الأصول النظرية للتوليدية التحويلية، تناول ديكارت وقليلا من أثر همبولدت فحسب.

ثبت المصادر

أولا: المصادر العربية

- أفلاطون. (٢٠٠١). ترجمة وتقديم: د. عزت قرني. في الفضيلة (محاورة مينون). (د. ط). القاهرة، مصر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- باقر، مرتضى جواد. (٢٠٠٢). مقدمة في نظرية القواعد التوليدية. (ط١). عَمّان، الأردن: دار الشروق.
- بول، جيفري. (٢٠٠٩). ترجمة: مرتضى جواد باقر. النظرية النحوية. (ط١). بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- تشومسكي، نعوم. (١٩٨٧). ترجمة: يؤيل يوسف عزيز. البنى النحوية. (ط١). بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة.
- تشومسكي، نعوم. (١٩٩٠). ترجمة: حمزة المزيني. اللغة ومشكلات المعرفة _محاضرات ما ناجوا. (ط١). الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال.
- تشومسكي، نعوم. (١٩٩٣). ترجمة وتعليق وتقديم: د. محمد فتيح. المعرفة اللغوية _طبيعتها وأصولها واستخدامها. (ط١). القاهرة، مصر: دار الفكر العربي.
- تشومسكي، نعوم. (٢٠٠٥) ترجمة: حمزة المزيني. آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن. (ط١). القاهرة، مصر: المشروع القومي للترجمة.
- تشومسكي، نعوم. (٢٠١٢) ترجمة: رمضان مهلهل. اللغة والعقل واللغة والطبيعة. (ط٢). بغداد، العراق: من إصدارات بغداد عاصمة القافة العربية (٢٠١٣).
- تشومسكي، نعوم. (٢٠١٧ أ) ترجمة: حمزة المزيني. أيّ نوع من المخلوقات نحن؟.(ط١). عَمّان، الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- تشومسكي، نعوم. (٢٠١٧ب) ترجمة: إبراهيم الكلثم. بنيان اللغة. (ط١). بيروت، لبنان: جداول للنشر والترجمة والتوزيع.
- تشومسكي، نعوم. (٢٠٢٢) ترجمة: حمزة المزيني. اللسانيات الديكارتية _فصل في تاريخ الفكر العقلاني. (ط١). عَمّان، الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- التميمي، جابر. (٢٠٠٣). جذور النظرية التوليدية التحويلية في كتاب سيبويه. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة بغداد، العراق.
- الحبّار، أمين. (٢٠١٥). التوليدية والتحويلية _رؤية اشتقاقية في الجملة العربية. (ط١). عمّان، الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
- حمد، إسماعيل. (٢٠٠٤). التراكيب التوليدية التحويلية في جوانب من شعر الراعي النميري. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة صلاح الدين، العراق.

- الدليمي، عبدالمنعم. (٢٠٢١). ملامح النظرية التوليدية التحويلية في كتاب معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي. أطروحة دكتوراه غير منشورة. جامعة تكريت، العراق.
- ديكارت، رينيه. (٢٠٢٠). ترجمة: محمود محمد الخضري. مقال عن المنهج _لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم. (د. ط). القاهرة، مصر: أقلام عربية للنشر والتوزيع.
- الراجحي، عبدة. (١٩٧٩). النحو العربي والدرس الحديث _بحث في المنهج. (د. ط). بيروت، لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- ساسي، عمار. (٢٠٠٧). اللسان العربي وقضايا العصر: رؤية علمية في: الفهم، المنهج، الخصائص، التعليم، التحليل. (د. ط). الأردن: عالم الكتب الحديث.
- السرور، ناديا. (٢٠٠٢). مقدمة في الإبداع. (ط١). عَمّان، الأردن: دار أوائل للنشر والتوزيع.
- سميث، نيل، وآلوت، نيكولاس. (٢٠٢٠). ترجمة: الهادر المعموري. تشومسكي _الأفكار والمثل. (ط١). بيروت–بغداد: دار الرافدين.
- السوداني، رفعت. (٢٠٠٠). المنهج التوليدي والتحويلي دراسة وصفية وتاريخية _منحى تطبيقي في تركيب الجملة في السبع الطوال الجاهليات. أطروحة دكتوراه غير منشورة. جامعة بغداد، العراق.
- السيد، صبري. (١٩٨٩). تشومسكي _فكره اللغوي وآراء النقاد فيه. (د. ط). القاهرة، مصر: دار المعرفة الجامعية.
- شاكر، محمود. (٢٠٠٦). ملامح النظرية التحويلية في الدراسات البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة بغداد، العراق.
- العابدي، حسين كاظم. (٢٠١٣). نظرية تشومسكي ونقدها في اللسانيات الحديثة _العربية والانكليزية أنموذجا. أطروحة دكتوراه غير منشورة. الجامعة المستنصرية، العراق.
- عبد الفاضل، ثائر. (٢٠١٣). القواعد التحويلية عند شعراء المرحلة الأولى من العصر الجاهلي. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة الكوفة، العراق.
- عبد، بشائر علي. (٢٠١٢). النظرية التوليدية التحويلية وملامحها في كتاب (المقتضب) للمبرد (ت٢٨٥هـ). رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة ديالى، العراق.
- عمايرة، خليل. (١٩٨٤). في نحو اللغة وتراكيبها (منهج وتطبيق). (ط١). جِدّة، السعودية: عالم المعرفة.

- عيّاش، عمر. (٢٠٢١). الجملة في قصيدة (مديح الظلّ العالي) لمحمود درويش _دراسة توليدية تحويلية. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة الموصل، العراق.
- غلفان، مصطفى، وآخرون. (٢٠١٠). اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم ومصطلحات. (ط١). الأردن: عالم الكتب الحديث.
- كوتنغهام، جون. (١٩٩٧). ترجمة: محمود منقذ الهاشمي. العقلانية: فلسفة متجددة. (ط١). حلب، سوريا: مركز الإنماء الحضاري.
- ليونز، جون. (١٩٨٥). ترجمة: د. حلمي خليل. نظرية تشومسكي اللغوية. (ط١). مصر: دار المعرفة الجامعية.
- النعيمي، سلوى يونس. (٢٠١٢). النحو التوليدي والتحويلي وملامحه في مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري. أطروحة دكتوراه غير منشورة. جامعة الموصل، العراق.
- ياقوت، أحمد سليمان. (١٩٨٣). في علم اللغة التقابلي _دراسة تطبيقية. (د. ط). مصر: دار المعرفة الجامعية.

ثانيا: المصادر الأجنبية

- Chomsky, N. The Logical Basis of Linguistic Theory, In Lunt, H. G. (ed) Proceeding of the Ninth International Congress of Linguists, Cambridge, Mass, August 27-31, 1962 (The Hague: Mouton), 914-78.
- Krashen, S.(1989). Language acquisition and language education: extensions and applications.

الملاحق

الملحق (١)

Demanding help for a research

١ رسالة

Chomsky, Noam - (noamchomsky) <noamchomsky@arizona.edu> السبت، ٢٠ آب، ٢٠٢٢ في ١٢:٤٨ ص

إلى: خالد مهيدي <kh.mh2612@gmail.com>

The approach wasn't a reaction to behaviorism, though it is radically opposed to the behaviorist currents that were dominant at the time (mid-1950s), ideas that seemed to me completely wrong-headed.

From: خالد مهيدي <kh.mh2612@gmail.com>
Sent: Friday, August 19, 2022 9:37 AM
To: Chomsky, Noam - (noamchomsky) <noamchomsky@arizona.edu>
Subject: [EXT]Demanding help for a research

External Email

الملحق (٢)

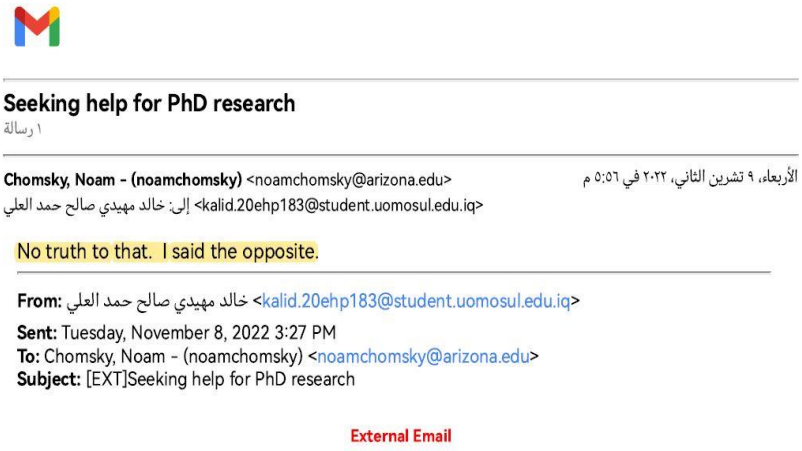

Seeking help for PhD research

١ رسالة

Chomsky, Noam - (noamchomsky) <noamchomsky@arizona.edu> الأربعاء، ٩ تشرين الثاني، ٢٠٢٢ في ٥:٥٦ م

إلى: خالد مهيدي صالح حمد العلي <kalid.20ehp183@student.uomosul.edu.iq>

No truth to that. I said the opposite.

From: خالد مهيدي صالح حمد العلي <kalid.20ehp183@student.uomosul.edu.iq>

Sent: Tuesday, November 8, 2022 3:27 PM

To: Chomsky, Noam - (noamchomsky) <noamchomsky@arizona.edu>

Subject: [EXT]Seeking help for PhD research

External Email